أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا

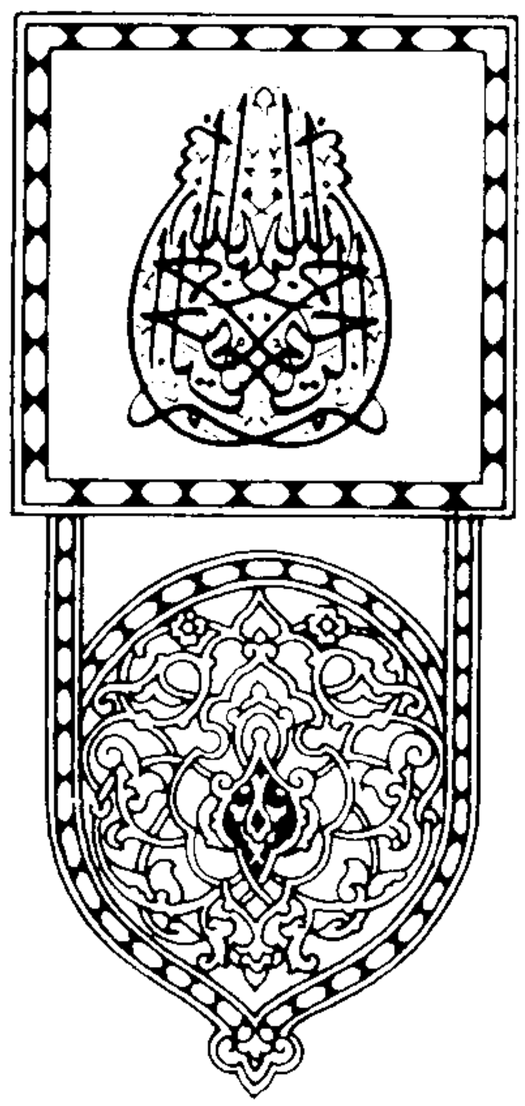

لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟
ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

محمد جلال كشك

أَلَا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا

تحليل علمي بالوثائق للفتنة الطائفية

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

حقــوق الطبــع محفــوظــة

الطبعة الأولى رجب ١٤١٢ هـ
يناير ١٩٩٢ م

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

□ هذا الكتـاب .....

عشية افتتاح مؤتمر مدريد أو مبكى العربي الثاني ، وجه رئيس دولة اسرائيل نداء إلى الولايات المتحدة جاء فيه : « أن الخطر في الشرق الأوسط ليس مصدره الصراع العربي ــ الإسرائيلي بل الخطر على الغرب كله هو أن يضع الإسلاميون الأصوليون يدهم على أسلحة الدمار الشامل » .

ولاشك أن الدول العربية تقوم بجهد نادر في حماية الغرب من هذا الخطر .. ليس فقط في تأييدها نزع أسلحة الدمار من المسلمين وحدهم ، الأصوليين منهم والوصوليين أيضا من باب الاحتياط ، وكذلك بشن حملة إبادة وحشية على كافة الاسلاميين المتطرفين منهم والمسالمين ، إباذة تشمل الساعين منهم لامتلاك قنبلة ذرية اسلامية أسوة بالقنبلة المسيحية واليهودية والمجوسية ... أو المكتفين منهم بزبيبة الصلاة .

وقد اكتشف الخبراء وأوصوا العملاء بأن الهجوم على الاسلام وتهديم تعاليمه وتشويه تاريخه هي أقصر السبل لإزالة مخاوف رئيس اسرائيل ، ومن ثم نشط في بلادنا من احترفوا التهجم على الاسلام والطعن فيه وتصيد الغرائب والسخرية من تاريخه وثقافته ، تحقيقا لسلامة الغرب واسرائيل ، لأن مصر هي الصخرة التي تعترض الإمبراطورية الاسرائيلية . ومصر لا تقوى على مواجهة اسرائيل بغير دور

عالمي يجمع حولها مؤيدين كما تجمع الصهيونية أو اليهودية التأييد العالمي لإسرائيل . وليس لمصر من دور عالمي إلا الاسلام .. فمصر لا تساوي شيئا بدون الاسلام ، والذين يريدون الغاء دورها الاسلامي إنما يقصون أجنحتها ويشلون قدرتها على الحركة ويقصفون دورها .. خذ مثلا موقفنا من الجزائر أو السودان .

في الجزائر تيارات عديدة منها : الأقلية المتفرنسة وهي بالطبع ما بين ماركسية وعلمانية وصليبية ، وهذه تكره العروبة والاسلام ، وهي رغم قلة عددها تسيطر على الحكم منذ الاستقلال وكانت تحكم بالحديد والنار في ظل نظام الحزب الواحد والرئيس الواحد والاقتصاد الواحد والفساد المطلق .. وهذه الطبقة لا يمكن أن تحب مصر ولا أن تقبل بزعامتها فلسنا قيادة لا في الماركسية ولا في العلمانية .. .

وهناك الجماعات غير العربية مثل البربر وهؤلاء تتنازعهم تيارات عديدة ، لكن أقوى تيار يحركهم هو الاسلام ، وهو الذي جمعهم مع العرب الجزائريين ضد فرنسا وجعلهم يقاومون كل إغراءات فرنسا والحضارة الغربية التي تمثلها فرنسا ، ما الذي يمكن أن يجذب هؤلاء إلى مصر إلا الاسلام والأزهر ودفاع مصر عن المسلمين والمسلمات في فرنسا وبلغاريا .. الخ .؟

ثم هناك التيار الاسلامي الزاحف بين الجماهير والذي ينتشر بين كل فئات الشعب الجزائري من عرب وبربر والذي يعبر فعلا وبكل الحقائق المتاحة عن إرادة الجماهير ، هذا التيار الذي أجبر طغاة جبهة التحرير على اقرار قانون التعريب المعطل من ثلاثين سنة والتشدق بالديمقراطية والتعددية ، وهم الذين هتكوا عرض الديمقراطية ثلاثين سنة حتى أفاقوا على صيحات الشارع الاسلامي المطالب الأوحد بالديمقراطية مهما تهتك اسلاميو المباحث في اتهامهم .

هذا التيار الاسلامي بزعامة جبهة الإنقاذ هو الذي كشف ارتباط الحاكمين الجزائريين وعملائهم في صحافة العالم العربي ، ارتباطهم الصريح مع الصليبية

والاستعمارية الفرنسية التي استأجرتهم لضرب الحركة الاسلامية هناك ودفعت لهم الأجر علناً ..

هذا التيار هو أمل مصر الوحيد في كسب الجزائر وقبول الجزائريين السنة زعامة مصر وأزهرها .. فإذا أرسلنا في هذا الوقت بالذات سفيراً رافضا للإسلام لا يترك صحيفة إلا ويهاجم فيها الاسلاميين ، مكانه الطبيعي بين تلك النخبة المستغربة التي تحتقر مصر ولا تتكلم العربية ، وهو بنشاطه وتصريحاته بارع في كسب عداء التيار الاسلامي ..

هل نستغرب أن تكون الجزائر ضدنا وتخسر مصر سندا وقوة في مواجهتها لإسرائيل ؟ ! .. .

الحق أن هذا ما كنت قد كتبته يوم كنت أقبل وصفه لنفسه بالعلمانية إلى أن أدهشنا خلال أفراحهم بمؤتمر مدريد بتوجيه دعوة لليهود لاعتناق المسيحية لأنها كما قال : « **الموقف المسيحي هو الموقف السليم الوحيد اليوم**(*) » .

نحن لا نعترض أبدا أن يكون سفير مصر مسيحيا وكان وزير خارجيتنا مسيحيا ، ويمكن أن يحضر مؤتمرات اسلامية ممثلا للدولة . ولكننا لا نتصور سفيرا لمصر في الجزائر يحمل اسما اسلاميا يقول للجزائريين : « الموقف المسيحي هو الموقف السليم الوحيد اليوم » . حتى ولو زعم أنه على لسان « باسترناك » لأن تعليقه وسياق المقال يؤكد موافقته على هذه المقولة .

هل نستغرب إذا أصبح السودان كله ضد مصر ، فنحن لا يمكن أن نكسب الشيوعيين ولا العلمانيين ولا جنود المبشرين الذين يعملون على تنصير السودان ... فما الذي يبقى لنا إلا جماهير السودان المسلمة وكيف نكسبها وصحافتنا تعتبر القتال ضد الاسلام في السودان معركتها الخاصة !؟

إن عناصر مأجورة عن وعي وعناصر تحركها أحقاد رخيصة ، وعناصر تتبع كل ناعق تسيطر على اعلامنا وتجنده لمحاربة الاسلاميين في مشارق الأرض

(*) الأهالى ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ .

ومغاربها غير محققة من هدف إلا إزالة دور مصر الاسلامي وإلغاء زعامتها للعالم الاسلامي ، وعزلها عن المسلمين .. لمصلحة من ؟ ! .. هذا هو السؤال الذي نعرف جوابه جيداً .

وهذه العناصر تستغل عنصرين .. أعمال التطرف التي تقوم بها جماعات مشبوهة لا نستبعد أن تكون تحت سيطرة عناصر غير اسلامية ، خاصة وان كل عملياتها سيئة السمعة سيئة النتائج ، لم توجه قط ضد عنصر أو جهة معادية فعلا للإسلام ! أليست أول عملياتها ذبح بشع لشيخ مسلم ثم اغتيال أول حاكم لمصر منذ محمد علي يقول إنه : « رئيس مسلم لدولة اسلامية .. » وكيف يكون اغتياله عملا اسلاميا إذا كان البعض يعتبره معجزة لا اسلامية ! .

نحن لا يخامرنا شك في وجود أكثر من يد معادية للاسلام تحرك هذا الذي يسمونه النشاط المتطرف للإسلاميين وبالذات الجانب الإرهابي منه . ولكن هذا لا يعفي الاسلاميين من المسئولية إذ يجب إعلان الرأي صريحا في استنكار عمليات الإرهاب على الاطلاق . وقد كتبت مرة أنه لم تقع جريمة اغتيال واحدة من قبل المسلمين في مكة قبل أن تعلن الدولة الاسلامية في المدينة وأنه ما لم تقم الدولة لا يحق لأحد أبدا ممارسة الاغتيالات الفردية ، التي تباح في إطار المواجهة المسلحة من جانب الدولة المسلمة . أما قبل ذلك فهو انتحار على المستوى التنظيمي ، وجريمة في حق الدعوة . وضربنا الأمثال برفض خبيب أن يقتل الصبي الذي أرسلته أمه إليه بسكين وهم يعدون العدة لذبح خبيب ، وكان المسلمون يعذبون والنبي ــ بأبي وأمي ــ يعتدى عليه ، وما كان أسهل أن يأمر النبي باغتيال أئمة الكفر في مكة ولكنه لم يفعل .. إلخ ولا أريد أن أطيل لأن تبذل فقهاء السلطان يجعلنا نتحرج من هذا الضرب من النصح . وكيف ننصح أو نحاور جماعة تقتل رميا بالرصاص بلا إنذار وتسلط عليها أحط وسائل الإعلام لتشويه حتى حياتها الخاصة (انظر ما تكتبه أمينة سعيد عن عضو تنظيمات اسلامية وماذا يطلب من زوجته أن تفعل لحظة القذف فيها .. أي والله هذا يكتب في صحافتنا وعلى لسان من ؟ أمينة السعيد .. نعم أمينة السعيد !! ثم يدعونهم للحوار !)

على أية حال ليس هذا حديثنا في هذا الكتاب وإنما نتحدث عن العنصر الثاني الذي يعتمد عليه أعداء دور مصر الاسلامي ، وهو استغلال الأقليات أو ما عرف في أعلامنا بالفتنة الطائفية .

والفتنة الطائفية حقيقة وخطيرة بل تكاد تكون القضية الرئيسية التي تواجه مصر حاليا والموقف منها يختلف بين الحريصيين على مصر وبين المتعمدين تقزيم مصر وشلها وشغلها عن القيام بمسئوليتها التاريخية في الدفاع عن المنطقة .

ففي مناقشة سرعان ما وئدت في صحيفة الأهالي استطعت أن أرغم أحدهم على الاعتراف بأنه يروج أن تاريخ مصر مشوه دائماً وأبدا بالفتن الطائفية وأنه منذ التقى المسلمون والاقباط على أرض النيل ولا تعايش بينهما بل اضطهاد دائم من جانب المسلمين للاقباط ..

أما نحن فنرى ونبشر أن الأساس في العلاقة الاسلامية القبطية هو التعايش والتاخي لهذه الأسباب :

مصر لم تكن دولة مستقلة مثل فارس أزال العرب استقلالها ، بل فقدت استقلالها قبل العرب بما يقرب من سبعة قرون وفقدت تميزها الحضاري قبل ذلك بعدة قرون بالغزو الفارسي الذي خلصها منه الغزو اليوناني ثم كان الغزو الروماني .. ومن ثم لم يكن ثمة ثأر وطني ولا هزيمة قومية في الفتح العربي بل كان على العكس تحريراً للمصريين .

الاقباط لم يكونوا مجرد خاضعين لحكم أجنبي وقت الفتح العربي ، ولا حتى مجرد مستعمرة للامبراطورية البيزنطية ، بل كانوا في ثورة ضد هذا الحكم ، ويتعرضون لعملية إبادة حقيقية سجلها عصر الشهداء وأصبحت المذابح التي قتل فيها الاقباط على يد هذه الحكومة الأجنبية هي بداية التاريخ القبطي ، ورغم مقاومة الاقباط الباسلة والتي لم يسبق لها مثيل إلا أيام الحرب ضد الهكسوس ، إلا أن تفوق الامبراطورية البيزنطية ومن قبلها الرومانية جعل حصة الاقباط من المعركة

هي الاستشهاد تحت ضرب السياط وأبشع ما تفتق عنه العقل من وسائل التعذيب والقتل وقد قتلوا شقيق البطريرك القبطي بإسالة شحمه بالشموع المشتعلة ثم وضعوه في جوال مثقوب وأنزلوه في البحر عدة مرات يطلبون منه الرجوع عن دينه فلم يفعل . ولم يأت العرب إلا وقد وصل اضطهاد الاقباط إلى مستوى لم تعرفه أمة ربما إلى يومنا هذا . واستحال على رئيس الكنيسة المصرية وممثل الشعب المصري الوجود العلني فاختفى عشر سنوات في الكهوف والمغارات والأديرة البعيدة عن رقابة سلطة الاحتلال . وتتفق رواية ألد المؤرخين عداوة للإسلام على أنه لو لم يقع الفتح العربي لأبيد الاقباط بإبادة كنيستهم وفتنهم عن دينهم . .

في هذه الظروف جاء العرب .. وما كان يمكن أن يصنفوا من قبل المصريين إلا محررين ، نعمة أرسلها الله لإنقاذ المصريين والانتقام لهم من عدوهم الذي أذلهم وقهرهم وفتنهم عن دينهم . بل واعتبر وصولهم معجزة أثبتت صحة دينهم . وتعددت الروايات عن الرؤيا التي رآها البطريرك الهارب وكبار الصالحين من الاقباط عن الخلاص القادم ، وهذه الروايات اثبتت في التاريخ القبطي الذي كتب بعد سنوات أو قرون ولو كان المسلمون اساءوا معاملة الاقباط بعد الفتح أو بعد استقرار الدولة بمئات السنين لما اهتم أحد بإثبات معجزة الخلاص الذي حمله المسلمون ..

ثم هناك دليل لا سبيل لدحضه وهو الأمن الذي ساد بعد الفتح فقد استطاع أربعة آلاف زادوا إلى ثمانية آلاف أن يفرضوا الأمن والاستقرار في بلد يصل تعداده في روايات طائفية معادية للإسلام والمسلمين إلى خمسة وثلاثين مليونا .. بل ما كاد يمر على الفتح أقل من عشرين سنة حتى كان هؤلاء الفاتحون يخوضون حربا دموية ضد بعضهم البعض في فتنة عثمان ثم علي ومعاوية ومع ذلك لم تقع ثورة ولا انقض عليهم أهل البلد فإما أن نتهم الاقباط بأنهم قد انعدمت منهم الرجولة والحس والوطنية بحيث كانت شرذمة متقاتلة فيما بينها تفرض هيبتها عليهم ، أو أن نعترف بأن هذا الشعب الذي كان يخوض مقاومة دموية ضد الامبراطور المسيحي قبل سنوات قد وجد الخلاص والعدل بل أهم من ذلك استشعر عودة الحكم الوطني في دولة العرب بحيث أصبح أحرص على استمرارها في مصر من

العرب أنفسهم .. وهذا هو التفسير الوحيد لهدوء الاحوال الى عهد المأمون .والثابت أن الثورة التى قامت في عهد المأمون اشترك فيها المصريون الاقباط والمسلمون معا .. ثم سرعان ما استقلت مصر وأصبحت قاعدة دولة عظمى منذ ابن طولون .. وأصبح الوزراء من المسيحيين في بلاط الخليفة في أول دولة دينية في الاسلام ! .

فالفتح العربي حرر المصريين وأعاد استقلال مصر بعد أقل من مائتي سنة وكان قد غاب سبعة قرون على الاقل ، هذا لو اعتبرنا مصر مستقلة في عهد البطالمة وان كانت ثقافتها أجنبية وحكامها من دم أجنبي ..

وقد أشرت في غيرها هذا المكان من الكتاب إلى وجود عناصر عرقية ولغوية وجيوبوليتيكية جعلت الفتح العربي عملية توحيد ودمج وليست فتحا ولا استعمارا ، لقد أصبحت مصر عربية إسلامية ، وأصبحت هذه حقيقة واقعية وتاريخية وحضارية ولم يحدث قط أن قامت فيها حركة وطنية ضد العروبة والاسلام . وانتصرت اللغة العربية دون أن يحس أحد ودون أن يتعمد ذلك أو يأسف عليه أحد إلا في زمان الفتنة هذا .. .

ويقف مؤرخو الفتنة عاجزون في تفسير دخول الاقباط في الاسلام وهم الذين كانوا يحرقون بالنار لكي يتحولوا من مذهب مسيحي لآخر فيختارون الموت ولا يتزحزحون عن دينهم .. ويحاول تجار الفتنة أن يجدوا سببا لتفسير هذه الظاهرة فيسقط في أيديهم وأيدي شياطينهم الأمريكان والصهاينة .. إذ لا تفسير إلا ما قاله مرغما مؤلف كتاب فتح العرب لمصر أو ما قال نصفه كارها وهو أن الاقباط فقدوا الثقة في الدين الذي يجمعهم ولو مع اختلاف المذهب مع لصوص وطغاة روما وبيزنطة ووجدوا في الاسلام ليس فقط دين التسامح والتعاطف والاعتراف بحقوق الإنسان بل وجدوا فيه المسيحية الحقة التي بشر بها المسيح والحواريون من أصحابه ، ومن ثم لم يحسوا أنهم يخونون المسيح باعتناقهم الاسلام وهكذا لا

أُكرهوا ولا كرهوا . وكانت أية مقارنة بين مسلكية المسلمين وحكومتهم وما عرفوه وعانوه من البيزنطيين والرومان المسيحيين ، تنتهي لصالح الاسلام .

وما عدا ذلك فهو زيف وبهتان فالذي لا يقوى على دفع الجزية كان يستطيع تفاديها بالرهبنة أو تسددها عنه الكنيسة أو أغنياء القبط . ومن العار أن يقال أن أمة غيرت دينها بدينارين ! خاصة وأن تجار الفتنة نقبوا حتى انتزعوا جلد التاريخ فلم يجدوا حالة يمكن اتهام السلطة فيها بإكراه الأقباط على اعتناق الاسلام كما فعلت السلطة المسيحية بالمسلمين في أسبانيا القرن الخامس عشر وبلغاريا القرن العشرين أو ما فعله المسيحيون الرومان والبيزنطيون بأقباط مصر .. .

من هنا لا نرى أي أساس ديني أو تاريخي أو عنصري يمنع إتحاد عنصري الأمة المصرية واندماجهما مع احتفاظ كل بدينه .

من هنا نرى أن الفتنة هي الطاريء الذي لا مبرر له ، وانها من فعل القوى الأجنبية ومن الممكن معالجتها :

* بكشف التزييف والدس والتآمر الذي يلعبه العنصر الأجنبي .
* بزيادة استقلال القرار المصري .
* بسد منافذ الفتنة من خلال تمحيص المطالب والشكاوي المطروحة ، فضح الزائف منها وتبني الحقيقي ..

وهذا ما يستهدفه هذا الكتاب الذي يعد ثالث كتبي في حديث الفتنة .. الأول « مصريون لا طوائف سنة ١٩٥٠ » والثاني « خواطر مسلم عن الأقليات ١٩٨٥ » .

والله الموفق

محمد جلال كشك

نوفمبر ١٩٩١

□ مدخل .....

أظن أن رصيدي في الوحدة الوطنية يفوق أي كاتب مصري معاصر بما يسمح لي أن أتكلم بغير غمغمة ولا تقية ، وهذا ما فعلته على أية حال ؛ عندما كتبت في الوحدة الوطنية منذ أربعين سنة .. نعم ! لقد تصديت لقضية الوحدة الوطنية قبل أربعين سنة وأصدرت أول وآخر كتاب يحمل هذا العنوان الذي يغني عن التعليق .. « **مصريون لا طوائف** » .. لقد كان شعارا وموقفا قبل أن يكون كتابا ــ ولعل الوقت ليس متأخرا جدا لأوجه الشكر للرفاق الأقباط من شباب ملوي حيث كنت أقيم هناك أمثل الحزب الشيوعي المصري (تنظيم الراية ..) وما زلت أذكر منهم سمير بقطر ، وأتمنى أن أراهم ، فقد كانوا السبب خلف إقدامي على تأليف ذلك الكتاب ــ الذي كان بالمناسبة أول مؤلفاتي ــ بعدما لمسته من تدهور غريب في العلاقات المسلمة ــ المسيحية ، رغم أنهم كانوا جميعا من الطلبة ، أي الطليعة المثقفة ، وأكثر من ذلك كانوا شيوعيين يفترض فيهم عدم الإيمان بالأديان .. فضلا عن التعصب بسببها ــ أو هكذا كنت أفكر وقتها ــ حتى تعلمت أن التعصب لا علاقة له بالتدين ، بل أحيانا ، إن لم أقل غالبا ، ما يكون التعصب أشد بين غير المتدينين . وها هو لبنان أقل بلاد العالم تدينا وأكثرها تعصبا ! وأذكر بهذه المناسبة أنني أبديت دهشتي من ظاهرة كونهم جميعا من المسيحيين ــ أقصد خلايا

الشيوعيين في ملوي ــ فرد سمير بقطر ــ وكان أصغرهم سنا وأطيبنا قلبا ــ '' أصل المسلمين كلهم جواسيس '' .. قلت لو صح هذا يبقى نهار أبونا أسود يا خال ! لأن أغلبية هذا الشعب من المسلمين لسوء الحظ .. !!

وربما كان من عوامل حبي لسمير بقطر أنه سليل جرجس بقطر ، وقد روى الدكتور قلادة حكاية جرجس بقطر في كتابه القيم « المسيحية والاسلام على أرض مصر » نقلا عن مقال تادرس شنودة المنقبادي « ماذا رأيت في الثورة العرابية » الذي جاء فيه : '' كان عرابي حامي الديار مارا ذات يوم في خط النار بجهة كفر الدوار فاستوقف نظره شيخ هَرِمٌ قد حنت الأيام ظهره .. فاستدعاه إليه وقال له : يا أبت أنا أرى شيبك لا يسمح بوجودك بين صفوف المقاتلين فلك أن تستريح كما تشاء . قال له الرجل : كيف تحرمني من أن أجود بدمي فدية عن بلادي من المغيرين عليها ، وأنا وإن كان أولادي الثلاثة هنا أيضا في ميدان القتال ولكني أود أن أشترك معهم ، فقبله عرابي وسأله عن اسمه فقال جرجس بقطر من أهالي مركز ملوي بالمنيا.. '' [*] .

تأمل كيف كنا قبل الاحتلال البريطاني في عهد البكوات ، وكيف أصبحنا بفعل الاستعمار والاغوات ..

واسترجع كلمات العزيز سمير اليوم وأنا أرى محاولات البعض إحداث ثورة في الخليج من خلال الاعتماد على الشيعة وحدهم ، بل المحاولات الأعجب وهي إحداث هذه الثورة في مصر من خلال زرع المذهب الشيعي .. ذلك أن من يريد إحداث ثورة حقيقية وليس فتنة لابد أن يركز على الأغلبية .

وعندما كتبت منذ أربعين سنة كان منهجي هو المصارحة التامة ، عن اقتناع بأن قضية الوحدة الوطنية أو الفتنة هي من القضايا التي لابد أن تعالج بكل صراحة

(*) ص ٢٣٥ من كتاب الأستاذ وليم قلادة عن المجلة الجديدة ، مارس ١٩٣٠ ، ص ٦١٢ ــ ٦١٣ .

وبكل وضوح وبلا نفاق أو مواراة أو حياء أو خوف .. لأننا إن لم نفعل فلن تثمر جهودنا إلا شرا يفوق ما حاولنا معالجته .. وإذا اقتحمنا هذا الموضوع ونحن نسلم مقدما بوجود جوانب يحظر الحديث فيها .. فلا أمل في حل حقيقي ، بل الأفضل الامتناع عن الحديث كلية ، والتخلي عن أي إدعاء ، أو تصد لحل القضية . ففي القضايا الحساسة والمصيرية مثل قضايا الفتنة والوحدة الوطنية ، يصبح شر الحلول هو الحل التوفيقي ، واسوأ معالجة هي التي تحوم حول الظاهرة من الخارج أو تحاول اقتحامها على استحياء والتسليم مقدما بأن المشكلة أكبر من الحل المسموح به !! .. لنتذكر دائما أنه لحل القضايا الشديدة الحساسية يجب أن نفكر وأن نتحاور بلا حساسية .. لأننا إن تعفف المخلصون عن كشف ما في قلوبهم ، فإن الفتانين لا يتورعون عن ملء الفراغ بأكاذيبهم .

وقد ناقشت وقتها كل ما كان الناس يتهامسون به ويتحرجون من نشره ، وإن كنت طبعا لم أصل لجذور المشكلة ولا أمكنني وقتها أن أطرح الحل الجذري .

وربما كان السبب هو صغر سني ونقص خبراتي ، وربما أهم من ذلك كله ، انني كنت أسير الفكر الماركسي الذي لا يرى حلا إلا إلغاء الأديان .. ورغم ذلك فقد وقع كتابي وقتها موقعا طيبا لدى الأقباط ، حتى قال أبونا القمص سرجيوس ، بطل الوحدة الوطنية في ثورة ١٩١٩ ، قولا اعتز به وهو : « ما دام قد ظهر مسلم يدافع عنا هكذا فقد حق لي أن أصمت .. وكان رحمة الله عليه قد تحول من رمز للوحدة إلى ما يمكن وصفه بالكتابة الطائفية تحت تأثير عوامل عديدة شرحت بعضها في كتابي ذلك الذي أصدرته ولم أكمل سن الرشد القانوني .. (ويمكن القول الآن أن سرجيوس بسبب موقفه من قيادة الكنيسة ، كان مضطرا للمزايدة عليها لكسب تأييد العامة والمتطرفين . وقد تصدى للرد عليَّ وقتها الشيخ محمد الغزالي ضمن كتابه : '' من هنا نعلم ''..) .

ولكن الكتاب اختفى وأغفله المؤرخون للوحدة الوطنية ، لعدة أسباب .. منها

أنه كما أثار عليّ غضب المتطرفين المسلمين وقتها لأنني دافعت عن حقوق الأقليات ، فإن بعض هؤلاء عندما أعجبوا بعد ذلك بكتاباتي الاسلامية '' غفروا '' لي هذا الكتاب '' المنحرف '' وتناسوه إكراما لي !!

كذلك غضب عليّ المتطرفون من الأقليات بسبب دعوتي للحل الاسلامي بمفهوم الاسلام الحضاري .. وانسحب غضبهم ــ كما هي العادة ــ على مؤلفاتي بأثر رجعي فشمل هذا الكتاب الذي لا يكاد يوجد مسيحي مثقف فوق الخمسين لم يقرأه ولكن لا أحد يذكره بحرف .. على أية حال فأنا أزعم أنني أول من كتب في قضية وحدتنا الوطنية من المصريين ؛ المسلمين والأقباط ، الباقين على قيد الحياة . .

وبعد مرور أكثر من عشرين سنة وجدتني أعود إلى قضية الأقليات أو الوحدة الوطنية في عدة دراسات منها كتابي : '' ودخلت الخيل الأزهر '' ١٩٧١ الذي نفيت فيه الشبهات التي حاولت المدرسة الاستعمارية ، وممثلها '' د. لويس عوض '' إثارتها حول موقف المواطنين الاقباط من الاحتلال الفرنسي .. ثم طرحت قضية '' الاسلام الحضاري '' .. وهي الفكرة التي « اقتبسها » بعضهم وتبناها البعض واختلسها آخرون ولكن بلا فهم وبلا اقتناع حقيقي .. ومن ثم فالعجز حتمي عن التفاعل مع الفكرة واستكمال حتمياتها .. بل ما حدث هو التخبط في تطبيقها .. وهي في اعتقادي جوهر العمل السياسي ، ومحور الوحدة الوطنية إذا ما استطعنا فهم أبعادها ، وإذا كنت أول من طرحهما مجدداً في العصر الحديث ، فهي ليست من اختراعي ، وإن كنت أنا أيضا الذي اكتشف جذورها في فكر ومسلكية استاذ الأساتذة جمال الدين الأفغاني . بل وقلت إن سر حقدهم عليه ، هو هذا المفهوم .. أعني الاسلام الحضاري الذي يضم المسلم والملحد والمسيحي واليهودي .. إذا ما انتموا وأخلصوا للهوية الاسلامية التي تميز وتفرز المصري .

والحقيقة التاريخية التي نعتز بها أنه كان قبطياً ذلك الذي صاغ فكرة الإسلام

الحضاري في أوضح صيغة ألا وهي قولة وليم مكرم عبيد الخالدة : « أنا مسلم وطنا نصراني دينا » : وكل ما نحاول تدبيجه يقصر عن التعبير عما تتضمنه هذه العبارة الجامعة المانعة لواحد من بلغاء العربية ورموز الوطنية المصرية .

وقد تبنت القوى المسيحية الوطنية في لبنان مفهوم مكرم عبيد ، فيقول كاتب لبناني :

« ولاشك أن المسيحيين العرب اليوم ، هم من أولئك الناس الذين ينتمون إلى حضارة الإسلام ، دون أن ينتموا إلى الإسلام دينا . » « فالمسيحي العربي يحمل في وجدانه هذا الرصيد الحضاري الذي يشترك فيه مع المسلم منذ قامت الدولة العربية الإسلامية حتى الآن .. وليس أدل على ذلك من أن جميع الذين عملوا لتعميق الخلافات بغية تسعير الاختلافات ، لم يقتصر عملهم على الصعيد الديني ، بل ابتكروا مسألة « اللغة العامية » والحرف اللاتيني ليفصلوا المسيحيين العرب عن الحضارة العربية في الصعيد اللغوي . وإن من السذاجة أن نعتقد ، أن الغرب إنما يسعى إلى إلغاء الإسلام ، حتى تتحقق وحدة المسلمين والمسيحيين العرب . » .

« رفض اللغة الفصحى والسعي إلى إحياء العامية واعتماد اللغات الأوروبية في آن .. إن التمسك بالعامية تعبيرا عن عصبية محلية حادة ، والترويج لاستخدام اللغة الفرنسية مثلا ، تعبيرا عن انفتاح حضاري عالمي إنساني قد يبدوان متناقضين إلا أنهما منطقيان جدا في إطار مساعي الغرب إلى تفكيك ملامح الحضارة العربية الموحدة بالفتح والكسر وصولا إلى دولة الالتحاق بالغرب »(*) .

وقد ورد في جريدة الأهالي هذا الحوار مع الباب شنودة :

* ما رأي قداستكم في وصف المسيحيين في مصر ــ من باب توحيد الأمة بأنهم « مسلمون وطناً ، ومسيحيون ديناً » ؟

(*) '' من يحمي المسيحيين العرب '' تأليف « فيكتور سحاب ، الناشر دار الوحدة ــ بيروت ١٩٨١ عن مقال نشر في النهار في مايو ١٩٨١ » .

ـــ : في الحقيقة كلمة « مسلمون » تعني ديناً معيناً ، وليس وطنا ، بدليل أنه يوجد مسلمون في أوطان (أخرى) ، وكل واحد منهم له وطنيته الخاصة وقوميته الخاصة . رغم الاتحاد في دين واحد . بالنسبة للمسيحيين هنا يمكن القول « مصريون وطناً ومسيحيون ديناً » و « مصريون وطناً ومسلمون ديناً » .

الأهالي : مكرم عبيد هو الذي طرح الشعار ؟

ـــ : لكنه تعبير غير دقيق »[٥] .

كذلك طرحت أنا قضية خلو الفقه الاسلامي من الإجابات التي يثيرها وجود الأقليات الاسلامية في بلد لا يحكمه المسلمون .. نعم أنا أول من طرح هذه القضية وأول من دعا علماءنا إلى الاجتهاد فيها مسترشدين بتراث المسلمين في الفترة المكية وفي الحبشة .. إلخ وقد بادر بعضهم لاختلاس الفكرة فوقفوا حيث انتهيت أنا .. فقد دعوت إلى فتح باب الاجتهاد في هذا الأمر ، أعني خضوع المسلم للدولة غير المسلمة . فعلكوها وردوها ثم لم يجتهدوا حرفا .. وكنت قد قلت بانتهاء الجزية بالنسبة لأبناء الوطن استنادا لمفهوم المواطنة في ظل الإسلام الحضاري .

ذلك أن الجزية ، كما اتفق الفقهاء ، وكما فهمها الذين دفعوا الجزية والذين أخذوها ، كانت مقابل إعفاء غير المسلمين من القتال مع المسلمين . لأنه لم يكن من المعقول ولا من الرحمة مطالبة الأهالي الذين فتحت بلادهم ، بالمقاتلة مع السلطة الاسلامية ، ضد الدولة التي كانوا يعملون لحسابها أو يقاتلون دفاعا عنها ، أو التي استذلتهم وزرعت فيهم الخوف وألغت من تفكيرهم وحسهم الرغبة أو القدرة على مقاومة سادتهم بالأمس .. ومن ثم كانت الجزية هي حصتهم في نفقات الدفاع عنهم وعن أوطانهم ، تلك المسئولية التي تكفلت بها السلطة الاسلامية الجديدة[١] . دون أن ينتقص ذلك من مواطنيتهم أو حقوقهم .

هذا ما فهمه الذين قبضوا الجزية وما عبرت عنه الحادثة المشهورة عندما قرر

(*) عن الأهالي ١٧/ ١/ ١٩٩٠ .

خالد بن الوليد الانسحاب من شمال سوريا للضرورة العسكرية فقد قام برد الجزية لأهل سوريا لأنه تخلى ، أو أصبح عاجزا عن حمايتهم .. وقد أثبتت كتب التاريخ حادثة من الجانب الآخر ، فعندما تمكن منويل القائد البيزنطي من إعادة احتلال الإسكندرية .. وارتأى عمرو بن العاص ــ عن حق ــ جر الجيش الرومي إلى سهول الدلتا بعيدا عن دعم السيطرة البيزنطية على البحر ، وسقط الروم في الشرك فزحفوا في الدلتا بعيدا واحتلوا عدة قرى ونكلوا بأهلها ونهبوا أموالهم كعادة الروم مع أقباط مصر .. ثم هزمهم عمرو وحرر شمال مصر مرة أخرى .. عندها جاء القبط من أهل هذه القرى وشكوا لعمرو « ما حل ببلادهم من النهب الشنيع على يد جند الروم » وقالوا قد كنا على صلحنا موالين للعرب وما حل لك ما صنعت بنا ، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا في ذمتك وقد أصابنا من وراء ذلك ما أصابنا ، '' وطالبوا عمرو بتعويضهم عما أصابهم من الخسائر ووافق عمرو على هذه المسئولية « فألزم نفسه صراحة بأن يعوضهم عما لحق بهم فكان هذا إقرارا صريحا من عمرو بما عليه من فرض واجب » . وقد استنتج الفريد بتلر أو علق بأن هذا دليل ما كان عليه عمرو من حسن الرأي في الحكم ، وما كان متصفا به من نبيل الشيم »[٢] . ولكن القضية أعمق من مدح عمرو وهو أهل لكل المدح طبعا .. إنما هو الفهم المتبادل لمصدر الشرعية في دفع الاقباط الجزية ، وهو تولي المسلمين أو الدولة الدفاع عن وطنهم ، حمايتهم .. حماية ممتلكاتهم وأرواحهم من العدوان الخارجي ..

والدليل أيضا أن الجزية فرضت على المسلمين عندما أعفوا من الدفاع عن الوطن في ظل الدولة العثمانية التي كان لها سياسة عسكرية خاصة وجاءت بعد تطورات أبعدت اهل البلاد عن الجندية ، عندها فرضت الجزية على المسلمين وبنفس الاسم ، وكان ولاة مصر يدفعونها ولا يرون ذلة ولا اضطهادا في ذلك . وأخيرا فقد جاء مرسوم إلغاء الجزية في مصر في عام ١٨٥٥ مقترنا بفرض التجنيد على المسيحيين[٣] .

ومن ثم باطل كل محاولة لجعل الجزية رمزا لانحطاط القبطي أو اضطهاده ،

أو ادعاء أنها تقسم المواطنين إلى مواطن من الدرجة الأولى ومواطن من الدرجة الثانية .. خطأ وشعوذة من الذي ينادي بها باسم عزة الإسلام ، وخطأ وشعوذة من الذي يطالب بإلغائها بحجة أنها فرضت لإذلال غير المسلم . ويجب أن نميز بين الجزية التي يدفعها المقاتل عن يد وهو صاغر لأنه قاتل وأراق دم المسلمين ، ويجب أن يكون استسلامه مقترنا بالخضوع لإعلان الهزيمة ، والقضاء على روح المقاومة ، على الأقل مثل اشتراط فرنسا وألمانيا في القرن العشرين عربة سكة حديد بعينها لتوقيع التسليم . وتعمد قائد جيش الاحتلال الأمريكي أن يستقبل امبراطور اليابان بالشورت .. يجب أن نفرق بين هذا الشرط المفهوم وبين دفع المواطن غير المسلم للجزية كضريبة دفاع ، وما أوردناه عن رد الجزية للشوام أو تعويض الأقباط عن خسائرهم بسبب انسحاب جيش الدولة المسلمة ، هذه الوقائع تنفي شبهة الذلة أو التشفي أو المعاني التي أضافتها عصور التخلف والتعصب في كتابات الطرفين . فهناك جزية الخضوع والقهر ، وتلك تفرض على المحاربين ، مثل التي كانت تدفعها امبراطورة الروم ، وهناك جزية المواطنة المرتبطة بمبدأ الذمة ، وهذه كانت نقلة حاسمة في تاريخ البشرية ، إذ كانت أول اعتراف بالمواطنة مع اختلاف الأديان ، إمكانية أن تكون الرعية على غير دين ملوكها .. قبول الدولة والمجتمع إمكانية الولاء مع اختلاف الأديان .

ونقل عن برنارد لويس قوله '' نجح الإسلام التقليدي ولم تنجح المسيحية في الحقيقة يوما ، في جمع التسامح الديني مع الإيمان الديني العميق ، فلم يشمل الإسلام بتسامحه غير المؤمنين فقط ، بل الهراطقة أيضا . وهذا اختبار أصعب بكثير .. وفي الصعيد الاجتماعي كان الإسلام ديموقراطيا على الدوام أو كان بالأحرى يقول بالمساواة ، فيرفض المجموعات المنغلقة كما في الهند ، ويرفض الامتيازات الارستوقراطية كما في أوربا ''[٤] .

وسأقدم هنا نموذجين للذين يثيرون الشغب حول الذمة لإشعال الفتنة وإن بدا أن حفرهما في اتجاهين مختلفين لكنهما في النهاية يصبان في بؤرة واحدة :